

الفصل الثاني والعشرون

الدراسات الإنسانية الأرسطية وفن التأريخ في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد

الأيكولوجيا ECOLOGY أو علم أثر البيئة :

كان أرسطو عالماً أولاً ، ينظر إلى كل شيء من جانبه المعقول ؛ ولكنه كان أيضاً فيلسوفاً ، بل فيلسوفاً ميتافيزيقياً ، وكان له شغف عظيم بالدراسات الإنسانية كلها . ولذا يجدر بنا - تمشياً مع روح تفكيره - أن نعرض نظرياته السياسية والاجتماعية ، مراعين في ذلك اعتبارات البيئة (الأيكولوجية) .

ولكن ما علم أثر البيئة Ecology ؟ إن لفظة «أيكولوجيا» يونانية بالطبع ، ولكنها ليست من الألفاظ اليونانية القديمة . وقد ظهرت في اللغة الإنجليزية أول ما ظهرت بالصورة الآتية oecology (وهذا أضيف) . وأول ما وردت الكلمة على هذه الصورة في معجم أكسفورد للغة الإنجليزية ، ويرجع تاريخ استعمالها إلى سنة ١٨٧٣ (هيكل Haeckel) . أما الصورة الثانية - وهي ecology* فأقدم ذكر لها في ملحق المعجم المذكور ، ويرجع استعماله إلى سنة ١٨٩١^(١) . وقد عرفت «الأيكولوجيا» في معجم أكسفورد بأنها «علم الاقتصاد الحيواني والنباتي : أو بأنها فرع من فروع علم الحياة يبحث في العلاقات بين الكائنات الحية والبيئة التي تعيش فيها ، كما يبحث في عادات هذه الكائنات وأساليب حياتها وما أشبه ذلك» . وكلمة أيكولوجيا حديثة جداً ، ولكن «علم الأيكولوجيا» قديم ، بل هو قديم قدم أرسطو . وكل عالم طبيعي على حظ من الذكاء قد بحث وقتاً ما بعض المسائل الأيكولوجية من غير أن يكون له علم

* يبحث المؤلف كلمة أيكولوجيا في القنيتين اليونانية والإنجليزية ، ويشرح الفرق بين هجاء الكلمة في كل منهما . ولقيمة لمثل هذا البحث لقارئ اللغة العربية - (المترجم) -

بذلك ، كالسيد البرجوازي في رواية «موليير» الذي كان يستعمل « النثر » من غير أن يدري أنه يفعل ذلك. بل مما لاشك فيه أن الأذكاء من الزراع والقناصين وصيادي الأسماك قد لاحظوا ، قبل أرسطو ، بعض الظواهر المتصلة بالبيئة ؛ ولكن أرسطو كان أول من كتب عن هذه الظواهر . وبذلك أدخل البحوث البيئية في الدراسات العلمية .

ولأذكر الآن مثالين : الأول مثال الپنا Pinna^(٢) .

والپنا^(٣) نوع من الحيوان الرخو ذى الصدفتين يوفر له أسباب الحياة سرطان صغير يعيش معه في فتحة محارته ويعينه على تحصيل غذائه ؛ ويسمى هذا السرطان الصغير pinoteres أو pinophylax ومعناه « الوصى على الپنا » . يقول أرسطو « إن الپنا إذا حرمت الوصى عليها سارع إليها الفناء » .

ومن المحتمل جداً أن الصيادين لاحظوا هذه الظاهرة الغريبة من ظواهر المضايقة أو الشركة في المعيشة . قبل أن يلاحظها أرسطو بزمان طويل . وأن كلمة « پينوتيريس » أو « پينوفيلاكس » كلمة عادية أكثر منها اصطلاحاً علمياً . بل إن مما يدل على أن هذه المسألة كانت معروفة عند جمهور الناس أنهم أطلقوا كلمة « پينوتيريس » على الرجل الطفيلى . والأرجح أن أول من أطلق هذه التسمية العجيبة على الرجل المداهن لم يجدها في كتاب أرسطو عن الحيوان ، وإنما وجدها في اللغة الحية التى يستعملها الناس .

والمثال الثانى أعجب من هذا ؛ وقد ورد عنه نص سأقتبسه برمته وإن كان الجزء الأخير منه لا يمت بصلة إلى موضوعنا . وهو مثال طيب يوضح طريقة أرسطو في وصف الحيوان . أما البحث الذى يعقب النص فمقصود على مشكلة السكان التى كان أرسطو أول من أثارها . يقول أرسطو :

« إن ظواهر التولد عند الفيران في غاية العجب ، من حيث عدد الصغار المولودة وسرعة تكرار الولادة . فقد حدث ذات مرة أن فأرة حبل حبست مصادفة في جرة مملوءة حباً ، ولما رفع عن الجرة غطاؤها بعد فترة قصيرة من الزمن ، وجد ما يربو على مائة وعشرين فأرة .

وسرعة توالد الجرذان في البلاد الريفية وما تحدثه من تلف من الأمور التي تجاوز الوصف ؛ فإنها قد تكون في بعض القرى من الكثرة بحيث تأتي على كل المحصولات ولا تدع منها للفلاح إلا قليلا . وهي من السرعة في تصرفها بحيث إن الفلاح الصغير قد يعقد العزم على حصاد محصوله الذي آذن بالحصاد ، فإذا ذهب من غده إلى حقله ومعه آلات الحصاد وجد محصوله قد ألهم الهاما . بل إن اختفاءها (بعد ظهورها) أمر لا يستطيع تفسيره أيضاً ؛ فإنها في أيام قلائل تختفي فلا ترى منها فأراً واحداً ، وكانت قبل ذلك من الكثرة بحيث أعجزت حيل من يحاربونها بأن يطلقوا عليها الدخان أو يقلبوا عليها الأرض أو يصطادوها حيثما وجدت ، أو يطلقوا عليها الخنازير ، فإن الخنازير تهدم مسارب الفيران بأن تنبشها بأنوفها . والثعالب أيضاً تصطادها ، وبنات عرس بوجه خاص تبيدها . ولكن هذه كلها لا تؤثر في مقاومة خصائص الإنتاج في هذا الحيوان ، أو في سرعة تولده . ولا ينجح في خفض عددها عندما تكثر كثرة فاحشة سوى المطر ، فإنها تختفي سريعاً عقب المطر الغزير . وفي بعض نواحي بلاد فارس دل تشريح الفأرة الأنثى أن أجنثها الإناث حبل . وقد ادعى بعض الناس - وأصروا على دعواهم - أن إناث الفئران تحبل إذا لعقت الملح وبدون أن يباشرها ذكر !

والفئران في مصر مغطاة بالهلب كالقنافذ . ومن الفئران أيضاً صنف مختلف يمشي على رجليه الخلفيتين الطويلتين ورجلاه الأماميتين قصيرتان^(٤) . وهذا الصنف كثير الانتشار جداً . وللفئران أصناف أخرى غير التي ذكرناها هنا^(٥) .

هكذا لاحظ أرسطو ، في دقة ، التزايد السريع المفاجئ في عدد أفراد نوع من أنواع الحيوان ، ذلك التزايد الذي يعقبه نقص ظاهر أو اختفاء تام . ويعلق كاتب حديث بحث هذا الموضوع بقوله :

« إن الوصف الدقيق المتزن الذي وصف به أرسطو تزايد عدد الفئران ونقصانه يمكن أن نتخذه مادة أساسية في كتابنا هذا ، فإنه يحتوي معظم

العناصر التى تتألف منها مشكلة الذبذبة الطبيعية للسكان^(٦). ولاغربة فى أن أرسطو لم يصل إلى أعماق هذه المشكلة لأنها بعيدة الغور حقاً ، ولم يكشف عن الجانب الجوهري فيها إلا فى عصرنا (١٩٢٥-١٩٣٥) يقول إلتون :

« إن الفكرة العامة ، وهى أن الجماعات الحيوانية لها بفضل تكوينها وتنظيمها القدرة على إحداث التذبذب العدى ، لم يبحثها أى باحث (عدا سينسر) بحثاً صريحاً حتى سنة ١٩٢٥ : فإن لوتكا Lotka ، الرياضى الأمريكى المتخصص فى « ديناميكية » السكان ، قد نشر فى هذه السنة تحليله الرائع للعالم بوصفه نظاماً أيكولوجياً ecosystem ؛ وحوالى هذا التاريخ وصل فولترا Volterra الرياضى الذى يقوم بأبحاثه فى إيطاليا إلى نتائج قريبة الشبه (من تلك التى وصل إليها لوتكا) فى موضوع ذبذبة السكان .

والفرق الكبير بين نظريتهما ونظريات الأيكولوجيين (علماء البيئة) أمثالى يتلخص فى أننى كنت أعتقد أن المؤثرات الخارجية ، كالمناخ ، هى القوى الأولى التى يحدث عنها تذبذب السكان ، وأن العوامل الأخرى كالأوبئة والتقلبات السكانية السابقة لأوانها ، ليست سوى نتائج ثانوية. أما لوتكا وفولترا فيعتقدان أن فى إمكانهما أن يثبتا بأدلة رياضية قاطعة أن جماعات الحيوان التى تنتمى إلى أنواع متصلة أيكولوجياً ، لابد أن تتذبذب تذبذباً عادياً بحيث يصبح المناخ والمؤثرات الخارجية الأخرى عوامل لاتفعل أكثر من أن تعوق التذبذب الطبيعى ، وبذلك تفضى إلى نتائج معقدة غاية التعقيد . وليس من شك فى أن النتائج التى وصل إليها هذان الباحثان صادقة فى جملتها ، ولكن العجيب هو أن تتوارد الخواطر فى مثل هذه النظرية الهامة بين باحثين رياضيين قام كل منهما ببحثه مستقلاً عن الآخر وفرقت بينهما أربعة آلاف من الأميال ، أحدهما يقوم بمهمة رسمية فى الإحصاءات الحيوية للسكان

والآخر رياضى بحث لا تتصل بحوثه بعلم الحياة (البيولوجيا) اتصالاً مباشراً على الإطلاق »^(٧).

لقد أبعدتنا هذه الفقرة كثيراً عن أرسطو ، ولكنها وضحت التجاوب العجيب بين الأفكار فى حل المسائل العلمية الخالصة ، أما التفسيرات الخرافية فتدور فى حلقة مفرغة ولا تنفضى فى النهاية إلى شئ . ولذلك كانت الأسئلة العلمية التى أثارها رجال من أمثال أرسطو ونيوفراستوس منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً من المسائل التى لا تزال تشغل عقول العلماء وتمدها بالخصب الفكرى حتى اليوم .

الأخلاق :

كان أرسطو الواضع الأول لعلم الأخلاق ، كما كان الواضع الأول للمنطق ولكن من فروع العلوم الطبيعية . وتعتبر كتب الأخلاق المنسوبة إليه أقدم مؤلفات نظرية من نوعها^(٨). وتحوى مؤلفات أرسطو أربعة كتب فى الأخلاق^(٩) أولها وأكبرها الأخلاق النيقوماخية وهذا نكاد نوقن بصحة نسبته إلى أرسطو . أما الثلاثة الأخرى وهى : الأخلاق الأوديمية ، وهى صورة مختصرة لمسائل الكتاب الأول ، ويغلب على الظن أنها لمؤلف آخر^(١٠) . والأخلاق الكبرى Magna moralia . وهى رسالة متأخرة مستمد بعض أجزائها من الكتابين المتقدمين ثم رسالة قصيرة فى الفضائل والذائل ، فإنها أكثر تأخراً فى الزمن من كل ما تقدم . والكتاب الأول يزيد فى حجمه عن الكتب الأخرى مجتمعة^(١١).

وفى « الأخلاق النيقوماخية » الكفاية لكل من يريد أن يدرس علم الأخلاق عند أرسطو ، لاسيما إذا كان غرضه معرفة الأجزاء التى ابتكرها أرسطو فى هذا العلم . أما إذا أراد أن يتعمق فى دراسة الأخلاق عند المشائين . فإنه من الضروري أن ينظر كذلك فى « الأخلاق الأوديمية » و « الأخلاق الكبرى » ويبحث ما هنالك من صلات بين هذه الكتب الثلاثة ، على نحو ما يوجد من الصلات بين ثلاثة الأناجيل المتشابهة .

وقد سميت « الأخلاق النيقوماخية » بهذا الاسم لأن أرسطو أهدها إلى نيقوماخوس الذى يحتمل أنه كان ابنه من زوجته الثانية لبليس من ستاجيرا . على أنه قد قيل أيضاً إن أرسطو لم يكتب الكتاب لابنه وإنما كتبه لأبيه . وهناك نظرية ثالثة تقول إن الكتاب يحمل اسم نيقوماخوس الابن - لا من جهة أنه مهدي إليه ، بل من جهة أن الابن كان ناشراً له . والفرض الأول أرجح الفروض وأكثرها قبولاً فى نظر الباحثين اليوم .

وغرض أرسطو من الكتاب هو الكشف عن النوع الأكمل والأفضل من أنواع السلوك الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان فى حياته ، أو بعبارة أخرى هو تحديد الخير الإنسانى الأعلى الذى يلزم الإنسان نفسه بالسعى إلى تحقيقه بمجرد أن يحدده . أما الخير الأعلى فهو أن يحقق الإنسان فى نفسه معنى الإنسانية ، أو أن يحصل الفضائل التى فى وسع النفس الإنسانية أن تحصلها ، أو يصل بذلك إلى السعادة الحقة ، لا السعادة كما يفهمها عامة الناس .

وتعين الخيرات الخارجية على تحقيق السعادة ، ولكنها ليست منها فى الصميم ؛ والفضيلة شئ محمود ، أما السعادة فشئء يتجاوز هذا الوصف . وتنقسم الفضائل إلى قسمين كبيرين ، الفضائل الأخلاقية (كالشجاعة والعفة والكرم والعدالة) ، والفضائل العقلية (الحكمة والتأمل فى الحقيقة) . وأعلى أنواع الخير على الإطلاق نجده فى حياة التأمل .

وتنقسم « الأخلاق النيقوماخية » إلى عشر مقالات : المقالة الأولى فى الخير الإنسانى ؛ والمقالات ٢ - ٥ فى الفضائل الأخلاقية ؛ والمقالة السادسة فى الفضيلة العقلية ؛ والسابعة فى العفة والشهوة واللذة . والمقالتان الثامنة والتاسعة فى الصداقة ؛ والمقالة العاشرة فى اللذة والسعادة .

ويبين أرسطو أن الفضيلة ليست أمراً فطرياً موروثاً ، ولا هى وليدة المعرفة (كما كان يزعم أفلاطون) وإنما هى عادة (أو ملكة) من عادات النفس يمكن اكتسابها والوصول بها إلى درجة الكمال . وأكمل العادات على الإطلاق فعل النفس الناطقة التى هى الجانب الإلهى من نفوسنا ؛ ونحو الجانب الإلهى فينا

يقربنا من الله . والأخلاق النيقوماخية ليست أقدم مؤلف في الأخلاق فحسب ، بل هي أقدم مؤلف في الفلسفة الخلقية على الإطلاق ، ولم يظهر بعدها ما يفضلها في كثير من المسائل التي عالجتها . ونحن لانملك إلا أن نغبط تلاميذ أرسطو ومن استمعوا له في الليكيوم على أن أتيحت لهم فرصة الاستماع إلى هذه البحوث الرفيعة ، وهي بحوث تمتاز باتزانها واعتدالها ، ولا يظهر فيها الانفعال الوجداني إلا قليلا .

أما « الأخلاق الأوديمية » فقد فسرت تسميتها بالطريقة التي فسرت بها الأخلاق النيقوماخية ، وأحاط بها الغموض عينه الذي أحاط بأختها : فقد أطلق عليها اسم « الأخلاق الأوديمية » إما لأن أرسطو أهداها إلى أوديموس ، أو لأن أوديموس هذا كتبها بالفعل . أو لأنه نشرها . وفي كلتا الحالتين يظل المصدر واحداً ، وهو أرسطو . وليس من شك في هذا لكثرة ما نراه من وجوه الشبه بين « الأخلاق الأوديمية » و « الأخلاق النيقوماخية » .

أما عن هوية أوديموس فلا نملك إلا أن نقول إنه أوديموس الرياضي الرودسي أحد تلاميذ أرسطو المقربين . وكان محتملاً أن يخلفه في رئاسة الليكيوم . نعم إن ثيوفراستوس اختير آخر الأمر لرئاسة الليكيوم ، لا لأنه كان أكثر من أوديموس إخلاصاً لأرسطو بل لأنه كان أرق منه خلقاً . وأرسطو ، بعيد النظر في شتى الأمور . كان يدرك أنه يجب أن تتوافر في رئيس الليكيوم صفات كثيرة ربما لا تكون الصفات العقلية الممتازة وحدها أهمها . ولكن إلى أي حد قدر أرسطو الصفات الوجدانية في مقابل العقلية ، والقلب في مقابل المخ^(١٢) ؟ هذا سؤال تستحيل الإجابة عنه ، كما تستحيل الإجابة عما إذا كان مهندس البارثينون رجال طيب القلب أو رجياً وكرماً !

أما كتاب « الأخلاق الكبرى » فلم تثبت نسبته إلى أرسطو ثبوتاً قاطعاً ، ولو ثبتت لاسرحننا وهو قريب في حجمه من الأخلاق الأوديمية (٦٦ — ٧٢ عموداً) وهو تلخيص للكتابين الآخرين « الأخلاق النيقوماخية » و « الأخلاق الأوديمية » مع إضافة جديدة غريبة : أعني قوله :

وعلى الجملة فليس الأمر كما يظنه سائر الناس من أن العقل هو مبدأ الفضيلة والهادى إليها، وإنما ذلك هو الوجدان؛ فإن من الضروري أن نشعر أولاً (كما هو الواقع) بدافع لاعقلي يدفعنا إلى الصواب، ثم نضع الأمر بعد ذلك أمام العقل ليقضى فيه ويقره^(١٣).

وهناك فقرة أخرى من «الأخلاق الكبرى» لها دلالتها وأهميتها أيضاً، وهى: من الواجب أن نتحدث عن النفس التى تقوم بها الفضيلة، لاعن ماهية النفس. (فإن الحديث عن ماهية النفس موضوع آخر). ويجب أن نقسمها تقسيماً إجمالياً. إنها تنقسم إلى قسمين: عاقلة وغير عاقلة؛ فالنفس العاقلة هى موطن الحكمة والذكاء والفلسف والقدرة على التعلم والتذكر وما إلى ذلك؛ والنفس غير العاقلة هى موطن الصفات التى نطلق عليها اسم الفضائل كالأعتدال والشجاعة وأمثال ذلك من الأحوال الخلقية التى توصف بأنها محمودة؛ وبفضلها نوصف نحن بالسيرة الحميدة، ولا نوصف بهذا الوصف من أجل فضائل النفس العاقلة. فلا يمتدح أحدنا لأنه فيلسوف أو حكيم أو أى شئ من هذا القبيل، كما أن الجزء غير الناطق فى النفس لا يوصف بأنه محمود إلا من حيث صلاحيته للخضوع للجزء الناطق فيها، أو من حيث خضوعه بالفعل له^(١٤).

وقد جمع مؤلف «الأخلاق الكبرى» (سواء أكان أرسطو أم شخصاً آخر) لم يزد على أن ردد أقوال أرسطو! (بين التعقل والوجدان، ولم يفقد بذلك التوازن العقلي فى كتابه. والوجدان لا يفصل عن العقل أبداً فى الطبيعة الإنسانية، ولذا كان من صميم الحكمة ألا يفصل الإنسان بينهما فى فلسفته).

السياسة :

الانتقال من علم الأخلاق إلى علم السياسة أمر طبيعي ، لأنهما يبحثان في ميدان واحد ، وإن كانت عناية الأخلاق بدراسة الفرد أكثر . ويبحث علم السياسة في خير الجماعة برمتها ، في حين يبحث علم الأخلاق في خير الفرد . ولكن خير الجماعة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بخير الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة ، بحيث يستحيل فصل أحد الخيرين عن الآخر . بل إنه يستحيل وضع حد فاصل بين الاثنين في كثير من الأحيان ، إذ هما وجهان لشيء واحد : إذا نظرنا إليه من جانب كانت نظرتنا أخلاقية ، وإذا نظرنا إليه من الجانب الآخر كانت سياسية .

«والاقتصاد» على بعض الاعتبارات ، مرحلة انتقال بين «الأخلاق» و «السياسة» ، ولكن الكتاب الذى يحمل هذا الاسم (الاقتصاد) فى مجموعة مؤلفات أرسطو^(١٥) كتاب منحول ما فى ذلك شك . وفيه بابان أو ثلاثة : الأول مأخوذ من أرسطو وكسينوفون ، وربما كان من نتاج أواخر القرن الذى عاشا فيه . أما الباب الثانى فالأرجح أن مؤلفه يونانى من رجال العصر الهلنسى عاش فى مصر أو فى آسيا ؛ وفيه ينقسم الاقتصاد إلى أربعة أنواع (الاقتصاد الخاص بالملك والاقتصاد الخاص بالولاة ، والاقتصاد السياسى . والاقتصاد الفردى) . وتعالج مسائل هذا الميدان الغريب بطريقة مهوشة تعتمد على القصص . وأما الباب الثالث - وهو لم يصل إلينا إلا فى ترجمة لاتينية - فيكاد ينحصر موضوعه فى الزوجة ومركزها وواجباتها ، وهو أبعد ما يكون عن المصادر الأرسطية^(١٦) . وقد يكون من المبالغة أن نقول إن الأساس الذى استند إليه أرسطو فى علم السياسة أساس بيولوجى بحت . وإن كانت بعض الاعتبارات البيولوجية قد وجهت تفكيره السياسى من غير شك : فإنه عندما بحث الأنواع المتعددة للحكومات قارنها بالأنواع المختلفة لحيون . إذ كل حيوان يتألف من أعضاء ، ومن الأعضاء

المختلفة : أو من مجموعات الأعضاء المختلفة ، تتكون أنواع الحيران المختلفة . وبالطريقة عينها تتألف أية جماعة من أنواع مختلفة من الناس . يسخر بعضهم بعضاً ، بأن يؤدي كل منهم عمله ويقوم بوظيفته في المجتمع ؛ كأن يكون زارعاً أو صانعاً أو تاجراً أو جندياً أو قاضياً أو مستشاراً في الرأي ؛ هذا فضلاً عن اختلافهم في الغنى والفقر ؛ فإن بعضهم غنى وأكثرهم فقراء . أما النتيجة النهائية لمثل هذه الظروف فلا يمكن تحديدها^(١٧) .

ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نفصل أرسطو السياسي عن أرسطو الفسيولوجي أو البيولوجي . وينطبق هذا الكلام نفسه على أرسطو الفيلسوف ؛ يدلنا على ذلك أنه يبدأ كتابه في ما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) بمقارنات من علم الحيوان .

ولم يكن أرسطو أول من قارن الدولة بالكائن الحي ، والجماعة السياسية بجسم الفرد وحسب ، بل إنه اتبع في بحوثه السياسية المنهج عينه الذي اتبعه في دراسة التاريخ الطبيعي . فكما قارن الأنواع المختلفة للأشياء لكي يصل إلى علم دقيق بماهية السمك ، كذلك درس النظم الدستورية في نحو مائتين من المدن اليونانية دراسة مقارنة . وما يؤسف له أنه لم يصل إلينا إلا واحد من هذه التواريخ الدستورية ، وإن شئت الظروف أن يكون أهمها^(١٨) . على أن أرسطو لم يقنع بوصف دستور أثينا على ما كان عليه في زمنه ، بل وضع إلى جانب هذا الوصف دراسة عن تطور الحكم في أثينا من أول أمرها إلى عهده ؛ لأنه رأى أننا ، لكي نقف على علم دقيق بحاضر كائن من الكائنات ، يجب أن نعلم شيئاً عن تطوره في ماضيه . وهكذا فعل أرسطو في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد ما فعله هربرت سبنسر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ بل إن كتاب علم الاجتماع الوصفي Descriptive Sociology لهربرت سبنسر — على الرغم مما فيه من تحليل مستفيض منظم — ليس في جملته بأفضل من كتاب دستور أثينا .

وقد أدرك أرسطو إدراكاً تاماً ما للتاريخ السياسي من قيمة في دراسة النظم

الاجتماعية الفردية ، ولذا كتب المقالة الثانية من كتاب « السياسة » برمتها في وصف الجماعات السياسية القائمة بالفعل ، إلى جانب وصفه للمدن الفاضلة كما تصورها كل من أفلاطون وفالياس من أهل خلكدونيا^(١٩) ، وهيوداموس من أهل ميليتوس .

ولكنه قبل عرضه يشرح المبادئ الأساسية التي تقوم عليها الحكومة أيا كانت ، وهذا أمر يمكن الوصول إليه من غير رجوع إلى الماضي ؛ ولذا وضع المقالة الأولى من كتاب السياسة في تعريف الدولة وتكوينها ، وقال : « إن الدولة مخلوق طبيعي ، والإنسان بطبعه كائن اجتماعي »^(٢٠) . ولتركيب الاجتماعي درجات مختلفة : الأسرة والقرية ثم المدينة (أى المدينة اليونانية hé polis ، وهي إلى حد ما ممكن مقارنتها بالدولة في العرف الحديث) . أما الروابط الأساسية التي بفضلها يرتبط أفراد المدينة فهي الروابط التي تربط المولى بالعبد والزوج بالزوجة والأب بأبنائه^(٢١) . وينبغي أن ننظر في هذه الروابط وما يترتب عليها قبل أن نحاول فهم نظام الدولة برمتها .

وكما أننا لخصنا ما في المقاليتين الأوليين من كتاب السياسة ، سنحاول الآن أن نتم هذا التلخيص بتحليل سريع لما في المقالات الأخرى .

في المقالة الثالثة للموضوعات الآتية : المواطن ، الفضيلة المدنية ، الجماعة المدنية ، تصنيف النظم السياسية : الديمقراطية والأوليجركية والملكية . أنواع الحكومة الملكية . وفي المقالة الرابعة^(٢٢) التنوع في النظم الدستورية الرئيسية . المدينة الفاضلة (المثلى) بوجه عام وفي ظروف خاصة . كيفية الشروع في وضع نظام سياسي (الوظائف الآتية : أعمال الدولة أو الشورى ، الأعمال التنفيذية ، الأعمال القضائية) . المقالة الخامسة : وتبحث في الثورات وأسبابها العامة ، الثورات في دول خاصة وكيف يمكن تلافيها . المقالة السادسة : وتبحث في تأليف الحكومات الديمقراطية والأوليجركية . المقالة السابعة : وتبحث في الخير الأعلى للفرد والدولة ، صورة من صور المدينة المثالية ، نظام التربية في المدينة المثالية ، الغاية في التربية وأدوارها الأولى .

المقالة الثامنة : وهى تنمة البحث فى النظام المثالى للتربية ، مع ذكر شىء عن الموسيقى والألعاب الرياضية .

وقد عرض أرسطو فى هذه المقالات لكثير من المسائل يضيق المقام عن ذكرها جميعاً . ولعل أفضل مثال لتفكير أرسطو السياسى هو ما ورد فى المقالة الخامسة مما يصح أن نسميه بالتاريخ الطبيعى للثورات . سأل أرسطو نفسه عن أسباب الثورات ، ومشخصاتها ، وطرق علاجها ، بالمنهج الذى يتبعه الطبيب فى تشخيص مرض من الأمراض ثم علاجه . تساءل أرسطو لماذا تحدث الثورات ؟ فكان الجواب أن السبب هو انعدام المساواة الاجتماعية ، والتضارب بين وجهات النظر السياسية والعواطف الجارحة . ولكن ينبغى أن يميز الإنسان بين الأسباب التى قد تكون مزمنة متغلغلة فى تاريخ الأمة ، وبين الأحداث العارضة المثيرة التى تحدث الثورة كما يحدث قدح الزند النار . ثم يتساءل أرسطو : كيف يمكن الحيلولة دون وقوع هذه الكوارث ؟ ويحيب بأننا يجب أن نتحاشى الظلم والحياة فى معاملة الشعب ، ونعمل على إيجاد التعاطف بين الحكام والمحكومين ، ونراقب العوامل الهدامة فى كيان المجتمع بعين ساهرة ، ونعدل بين وقت وآخر شروط الملكية ، ولا نسمح لفرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات بطغيان النفوذ ، وأن نقاوم فساد الحكام ونصطنع الاعتدال فى كل شىء . وإن من يقرأ المقالة برمتها^(٢٣) ليعجب من استقصاء تفكير أرسطو وشموله كما يعجب بمسايرته للتفكير الحديث ؛ بل إن كتاب السياسة ليصلح اليوم أن يكون مرجعاً لكل من يدرس نظم الحكم والإدارة .

والمقالتان الأخيرتان غير كاملتين ؛ ويشرح فيهما أرسطو الجمهورية المثالية ويصفها ؛ وهما يذكراننا بأفلاطون الذى يكثر أرسطو من الإشارة إليه وينقده . ولكن شتان بين النعمة التحكيمية عند أفلاطون ، والمنهج العقلى الهادئ عند أرسطو ! وليس معنى هذا أن أرسطو لم يكن فى وقت من الأوقات متعصباً لرأيه ، أو أن تفكيره خلا من الخرافات ، فقد كانت له عيوب ككل عظيم

من عظماء المفكرين . ولكن الذى يجب أن نلاحظه هو أن عيوب أرسطو ، كعيوب غيره من الناس دائماً ، ترجع إلى ظروفه الاجتماعية إلى حد كبير ، فإن الإنسان مهما بلغ من العظمة والقدرة على الابتكار لا يستطيع التغلب على القيود التى يفرضها عليه الزمان والمكان اللذان يعيش فيهما .

فمن القيود التى حدثت من نظر أرسطو ما يرجع إلى صغر الدولة فى النظام اليونانى ؛ فإن الدولة بلغت من الصغر أنها انحصرت فى المدينة وضواحيها ولذلك كان الحكم الديمقراطي الذى أمكنه أن يفكر فيه — فى أفضل أحواله — شبيهاً بالاجتماعات التى تعقدها مدينة من مدن نيوانجلند أو المقاطعات cantons السويسرية ؛ فلم يكن أرسطو بحاجة إلى التفكير فى السلطة النيابية . ولا إلى مناقشة المشاكل الشائكة المتصلة بنظام الحكم النيابي .

وأسوأ ما يؤخذ على أرسطو ما يتصل بنظام الرق . وقد اعتبره أمراً طبيعياً . استمع إليه حيث يقول :

وقد وضح إذن أن بعض الناس أحرار بطبيعتهم وأن بعضهم أرقاء بطبيعتهم وأن الرق حق على هؤلاء وهم أهل له (٢٤) .

بل يجب التسليم بأن بعض الناس أرقاء أينما حلوا . وأن بعضهم أحرار فى كل مكان ، ومثل هذا يقال فى شرف المحتد : فالهلاليون يعتبرون أنفسهم أشرافاً لا فى موطنهم وحسب ، بل فى كل مكان . فى حين أنهم يعتبرون البرابرة شرفاء فى مواطنهم فقط . وبذلك يفرقون بين نوعين من الشرف والحرية : أحدهما مطلق والآخر نسبي (٢٥) .

وقد كان أرسطو مؤمناً كل الإيمان بهذه الأفكار بدليل أنه أجاز إعلان نوع من الحرب يصح أن يطلق عليها أسلافنا اسم « حرب المستعمرات » . يقول :

« إذا لم يكن فى الطبيعة عمل ناقص أو عبث ، فمن الضروري أن نستنتج أن الحيوان خلق من أجل الإنسان . ولذا كانت الحرب بمعنى من معانيها فناً من الفنون الطبيعية غايته التملك ، لأن من أساليب التملك الصيد والقنص ، وهو فن يجب أن تمارسه ضد الحيوانات

الوحشية وضد الناس الذين قضت الطبيعة بأن يخضعوا لغيرهم ولكنهم لم يخضعوا . ذلك لأن حربياً من هذا القبيل لاشك حرب عادلة^(٢٦) .

نعم : هذه هي الشناعة بعينها ! ولكن هل خلا تفكيرنا اليوم في الحرب والسلم عن كل عيب حتى نحل لأنفسنا أن ننكر على غيرنا تفكيرهم ؟

ليس من الضروري بعد هذا أن نناقش رأى أرسطو في السلم والحرب بأكثر مما فعلنا ، فإن تشبيهه الحرب بالصيد والقنص قد أفسد عليه التفكير منذ البداية ، ولأول مرة أضله التفكير البيولوجي ضلالاً بعيداً . ولكن يجب أن نتذكر كم من القرون مضت ، وكم من أهوال وجرائم للحرب ارتكبت . قبل أن يفكر الناس في مقاومة الحرب وما فيها من ظلم ووحشية . ثم قبل أن يتادوا بالقضاء عليها . بل يجب أن نتذكر أيضاً أن فيلسوفاً ممتازاً كالفيلسوف ديكارت . الذى عاش بعد أرسطو بنحو عشرين قرناً ، قد رأى أن الواجب يقتضيه أن يتطوع في الجيش الهولندى ويقوم بنصيبه في حرب لاناقة له فيها ولا جمل . ولكنه نظر إلى الحرب نظرتة إلى نوع من أنواع الرياضة أو الصيد ، فظن أن من الخير أن يمارسه ، ولا شيء أكثر من هذا .

ولكن لا يزال يساورنا شيء من القلق له ما يبرره ، وذلك عندما نسائل أنفسنا : كيف يتكلم فيلسوف كبير وحكيم عظيم كأرسطو عن طبقة من البشر يسميهم الأرقاء بمثل ما تكلم به ؟ لقد وجد الرق في العالم منذ القدم ، ووجد في أثينا على نحو حسبه الأثينيون جزءاً من نظام الطبيعة . ولهذا السبب يمكننا أن نقول إن أثينا لم تكن في وقت من الأوقات ديمقراطية شعبية ، بل كانت أوليجاركية تتحكم في طائفة ضخمة من العبيد الصامتين وتبتزهم . فلندكر كذلك الفيلسوف الكاثوليكي العظيم توماس الأكويني ، الذى عاش بعد أرسطو بما يربو على ستة عشر قرناً ، إذ كان يرى أن الرق نظام معقول ! نعم قد يبادر غير الكاثوليك بقولهم : وماذا عسى أن ينتظر من القديس توماس وهو

من رجال العصور الوسطى المظلمة ؟ حسنا . فلندع الآن القديس توماس والقرون الوسطى . لقد أتى بعد القرون الوسطى عصر النهضة ، وعصر الإصلاح والتنوير ، والثورتان الأمريكية والفرنسية . ثم أتى بعد هذه كلها — ومنذ أقل من قرن مضى — بعض رجال المسيحية الذين اعتقدوا أن استرقاق العبيد السود أمر تقضى به الطبيعة والعقل . أقول إن هذا حدث منذ أقل من قرن! فهل نلوم أرسطو لأنه لم يقدر وحشية أفعال لا يزال إثمها يحز في ضمائرنا ؟.

وليست آراء أرسطو في التجارة بأقل سذاجة من آرائه في الرق ، ولكن لسنا بحاجة إلى أن نذهب إلى الماضي البعيد لنرى أن بعض المثقفين من الناس كانوا يعتبرون ممارسة التجارة أمراً شائناً ضاراً بالسمعة ، وكانوا يزدرون التجار ويضعونهم في منزلة غير منزلتهم . يقول أرسطو :

أما وقد ذكرنا ما فيه الكفاية عن نظرية جمع الثروة فلنبحث الآن في ناحيتها العملية . والنظر في مثل هذه المسائل خليق بالفيلسوف . أما ممارستها بالفعل ففيها شيء من الضيق والمشقة^(٢٧) .

لقد أشرنا من قبل إلى قصة لتاليس عن المضاربة المالية ، (ص ٣٦٥ — ٣٦٦ ج ١) ولأرسطو قصة من النوع نفسه يرويها في الموضوع ذاته حيث يقول :

أودع مال عند رجل من صقلية فاشترى به جميع الحديد الذي أنتجته المناجم ، فلما أقبل التجار من أسواقهم المختلفة ليشتروا حديداً كان الصقلى وحده هو البائع له فربح في ذلك ٢٠٠٪. على الرغم من أنه لم يزد من ثمن الحديد . فلما سمع ديونيسيوس^(٢٨) سمح للصقلى أن يحتفظ بالمال على شريطة ألا يبقى بسيراكوز ، لأنه رأى أن الرجل قد كشف عن طريقة لجمع المال ضارة بمصلحته الذاتية . وبذا يكون قد اهتدى إلى ما اهتدى إليه تاليس ، لأن كلا منهما انتج نحو احتكار الشيء لنفسه . وينبغي أن يعرف رجال الدولة مثل هذه الأمور ، لأن الدولة كثيراً ما تحتاج إلى المال وإلى معرفة الوسائل التي

يحصل بها المال كما يحتاج إليه أهل البيت بل أكثر . ولهذا يشغل بعض رجال الدولة جميع أوقاتهم في النظر في شئون المال خاصة^(٢٩) .

ومن الغريب أن أرسطو لا يكاد يشير إلى مسألة « قرض المال » على الرغم من كثرة مقرضى المال والصارفة والممولين في زمنه . وهو يذكر « الربا » من حيث هو وسيلة للحصول على المال . ولكنه لا يعلق عليه بشئ^(٣٠) . وقد شددت الديانات اليهودية والمسيحية في معارضة قرض المال بربح على المقرض وكان نتيجة ذلك أن حرمه القديس توماس . ولكن مضت قرون طويلة قبل أن يوضع حد فاصل بين الربح المعتدل والربح الباهظ على المال المقرض أو بين التجارة المشروعة والربا بالمعنى الصحيح^(٣١) . فمن الواضح أن أرسطو لم يكن عالماً اقتصادياً ولم يكن من طبيعته فهم المسائل الاقتصادية كما كان من طبيعته إدراك المشاكل الاجتماعية والسياسية . ولكن هذا يثير مشكلة غريبة ، إذ الحقائق الاقتصادية قديمة قدم الحياة الاجتماعية ذاتها ، فلماذا اقتضى إدماجهما معاً في العلم والفلسفة وقتاً طويلاً ؟

ومن البين أيضاً أن نظريات أرسطو في السياسة لم تكن صحيحة ، ولكنها لم تكن خاطئة في جوهرها كنظريات أفلاطون . ومن فضائل أرسطو ميله إلى التوفيق بين المتعارضات ، وهذا مما شفع له في قصور نظرياته ، فإنها بعيدة عن الكمال ، ولكنها قابلة لأن يوصل بها إلى الكمال . لقد نظر في جميع أنواع الحكومات التي جربت في عصره وقبل عصره ، واستنتج أن الديمقراطية نظام مملوء بالمخاطر ، فكان الحل الذي ارتضاه نظاماً يوفق فيه بين الأرستقراطية الأفلاطونية والنظام الإقطاعي المعتدل وبعض النظريات الديمقراطية ؛ وفي هذا النظام ضمن لكل مواطن فرصة المشاركة في الحكم . وهو يرى أن طبقة العمال (الذين هم العبيد) يجب ألا يتولوا مناصب الحكم ، كما أن طبقة الحكام يجب ألا يزاولوا أعمال الحرف أو يكسبوا شيئاً من المال ؛ ويجب أن يتعهد الحكام بالتربية بالمعنى الصحيح الكامل ليصبحوا سادة الشعب ؛ ويجب ألا يكون الفلاسفة حكاماً بل تقصر مهمتهم على التعليم والإرشاد ، لأن الفلسفة أساس لا غنى عنه في تكوين الرجل

الفاضل ، فالمدينة الأرسطية إذن ليست شيئاً أشبه « بالدير الحربي » كمدينة أفلاطون ، بل جمهورية معتدلة تستمد فضائلها من فضائل الأسرات . وقد أدرك أرسطو أنه لا وجود لحكومة كاملة كمالاتها مطلقاً ، وأن كمال الحكومات كمال اعتباري بالنسبة لأنواع الأمم وظروفها الخاصة .

وتظهر دقة الفهم عند أرسطو في مناقشته للاشتراكية^(٢٢) . والاشتراكية في نظره لا تفرض فرضاً على الأمة . ولكن الأمة تقبل عليها إقبالا طبعياً عندما تتحول ميول الناس إلى تحقيق الخير العام (الإحسان) . وما وصل إليه أرسطو من نتائج في هذا الموضوع لا يزال صادقاً حتى اليوم . فالمشاركة في الخيرات المادية مبدأ جليل ، ولكننا لسنا أهلاً للأخذ به . وإنما يجب ألا نأخذ به إلا بطريق التدرج وبمقدار ما نهيأ له ونستحقه .

هذا وقد كان ظهور كتاب السياسة لأرسطو قبل نهاية القرن الرابع (قبل الميلاد) حدثاً لا يقل في روعته عن ظهور ما أنتجه رجال ذلك العصر الذهبي من فنانين ورياضيين وعلماء . ولأدلل على عظم قيمته من أنه لم يؤلف كتاب يقاربه أو يقارنه حتى العصر الحديث . ولم يكن في مؤلفات العصرين القديم والحديث ما يدانيه . بل إن الكتاب بعد أن ترجمه الدومينيكي الفلمنكي ويلم الموربكي Willem of Moerbeke من اليونانية إلى اللاتينية نزولا على رغبة القديس توماس سنة ١٢٦٠ لم يحدث الأثر الذي كان متوقفاً أن يحدثه في ذلك العصر . ولم يغير شيئاً من الجو السياسي الذي كان سائداً إذ ذاك . نعم إن القديس توماس قد استغله في تكوين بعض أفكاره . وبينما احتفظ ببعض آراء أرسطو ، أصلح من غير شك تعاليمه في الناحية الديمقراطية^(٢٣) .

وبعد . فلا تزال السياسة النظرية التي صاغتها عبقرية أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد في أول دور من أدوار نشأتها حتى اليوم . ولا تزال تواجه المشاكل التي واجهها كل من أرسطو والقديس توماس . مع أن قليلاً جداً من الناس من أدرك ضرورة الرجوع إليهما أو دفعه إلى ذلك رغبته الصادقة في معرفة الحق والعدل .

فن التأريخ Historiography :

يقول ديودورس الصقلي في مطلع كتابه « المكتبة التاريخية » الذى انتهى من تأليفه بمدينة روما سنة ٣٠ ق . م . ما يأتى :

من واجب الناس جميعاً أن يدينوا بالشكر العظيم لأولئك المؤرخين الذين وضعوا للبشر تاريخاً عاماً^(٣٤) : لأنهم بمجهوداتهم الفردية قدموا خدمة كبرى للجنس البشرى برمته ، وكما أن العناية الإلهية ربطت بين الحركات المنتظمة للأفلاك وبين طبائع الناس برباط واحد عام ووجهت الكل منذ الأزل إلى الطريق الذى يسير فيه ، ومنحت الكل ما قدر له أن يكون ، كذلك المؤرخون : فإنهم بتسجيلهم الشئون العامة لسكان هذا العالم ، كما لو كانوا أهل مدينة واحدة ، قد جعلوا من كتاباتهم سجلاً واحداً لأحداث الماضى . ومرجعاً نهائياً تصفى فيه معرفتنا بهذه الأحداث . ولذا حق لنا القول بأن معرفتنا بالتاريخ أعظم نفع فى كل شأن من شئون الحياة ، لأنها تزود الشبان بحكمة الشيوخ ، وتمد الشيوخ بتجارب يضيفونها إلى تجاربهم ، وتبهي المواطنين لمهام القيادة والزعامة ، وتلهم الزعماء القيام بأنبيل الأعمال لما يخلعه التاريخ عليهم من صفات المجد الخالد .

من يا ترى أولئك الذين كان يفكر فيهم ديودورس؟ لقد كان على علم بما كتب هكاتايوس ، وهيرودوت وثوكيديديس وكسينوفون وغيرهم . ولكن إشارته إلى « التواريخ العامة » توحى بأنه كان يفكر أولاً فى الجهود التاريخية العظيمة التى بدأت عصر أرسطو . وبلغت ذروتها على يدى بوليبيوس (فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد) . نعم قد نعد هيرودوت مع سذاجته ورقة أسلوبه من مؤلفى « التواريخ العامة » ، ولكن أحداثاً كثيرة حدثت منذ عهده ، وانتهى من بعده عصر السذاجة فى كتابة التاريخ ، وأصبح مستحيلاً على كتاب التاريخ أن يكتبوه على النسق الذى كتبه ، وظهرت البحوث التاريخية ذات

الموضوعات الخاصة ، كذلك التي كتبها ثوكيديديس ؛ ولكن العلم اليوناني الذي عرفه هذان الرجلان العظميان كان قد انتهى إلى غير رجعة . ولما اتحدت بلاد اليونان تمكنت من أن تقهر الدولة الفارسية ، ولكنها لما أنهكت الأحقاد القتالة قوتها ، أصبحت تحت رحمة جارتها الشمالية فانهزمت اليونان — أو بالأحرى — أثينا — وخلفتها مقدونية . أما من الناحية الروحية فقد دارت الحرب بين إيزوكراتيس وديموستينيس ، وانتصر إيزوكراتيس في نهاية الشوط ، لأن فيليب انتصر ، ولم يكن انتصاره انتصاراً سياسياً وحسب ، بل كان فوزاً سياسياً وأدبياً . وفي الحق كان إيزوكراتيس الأثيني (٣٤٦-٢٤٨) أديباً كبيراً ، ساعد على صب اللغة اليونانية في قالب الكمال ، كما كان سياسياً وخبيراً بالقانون وخطيباً ، بل أحد الخطباء العشرة في أثينا ؛ ولم تعوزه العاطفة الوطنية وإن كان على رأس الجماعة التي تقول بسياسة التعاون (مع مقدونية) . وقد رأى ضرورة استتباب الأمن الداخلي لضمان سلامة اليونان ، ولكنه اعتقد أن الأمن الداخلي مستحيل بدون شيء من التدخل الأجنبي من جانب مقدونية . ولم يدرك أن هذا التدخل سيقضي على استقلال اليونان وحريتها . وانتهى به الأمر إلى الانتحار ، بعد موقعة كارونيا سنة ٣٣٨ ، عندما أبقن أن أحلامه قد تبددت . وقد كان تأثيره في الأدب اللاتيني عن طريق شيشرون ، عظيماً ؛ وكان هذا التأثير في الناحية الأدبية لا الفلسفية ، ولذا كان أقل في مستواه من تأثير أرسطو . نعم لم يبق نفوذه إلا قليلاً . ولكنه في ذلك الأمد القصير ، هيمن على الدراسات الإنسانية القديمة كلها . أما تعليم أرسطو فكان مقصوراً على طلاب الفلسفة والعلوم الناضجين ، بينما ظهر تأثير إيزوكراتيس في جميع الشبان الذين أحبوا لغتهم ورغبوا في البراعة فيها بقدر ما يستطيعون . وإذا فقدت أمة حريتها تحول نظام التربية فيها نحو الخطابة ، ولذا كان إيزوكراتيس أخطب أهل زمانه .

كانت خطب إيزوكراتيس في أغلب الأحيان تاريخية . لأنه كان من الطبيعي أن يتغنى بعظمة اليونان ، وبعظمة أثينا خاصة ؛ وكان مدحه لأثينا منصباً على ماضيها لاعلى حاضرها . وكان له تلميذان مؤرخان أيضاً ، هما إفوروس

وثيو ميمبوس ، بل كان أبرز المؤرخين في عصرهما وقد اتفقا في صفات كثيرة ،
واختلفا في مزاجيهما اختلافاً كبيراً . يحكى لنا سويداس أن ايزوكراتيس كان
يقول إن ثيو ميمبوس كان يحتاج إلى من يكبح من جماحه ، في حين أن ايزوكراتيس
كان يحتاج إلى من ينخسه . وقد قسا الزمان على هذين الرجلين فصاعت مؤلفاتهما ،
غير أنه يبدو مما بقي منها أنهما كانا أقل مرتبة من عظماء القرن السابق عليهما —
هيرودوت وثوكيديديس — ومع ذلك يجب أن نحاول أن نعرف بعض الشيء عنهما ،
فإنهما في الوقت الذي ظهر فيه الوعي القومي في وطنهما ، أبرزتا في صورة جديدة
قيمة التاريخ العام الخارج عن حدود الوطن ، كما أوضحنا أهمية العوامل الجغرافية
في الأحداث التاريخية .

إفوروس الكيمي Ephoros of Cyme^(٣٥) .

كانت « كيمي » . التي ولد بها إفوروس حوالي سنة ٤٠٥ ق . م . أكبر
المدن الأيونية بآسيا الصغرى ، وكانت ذات شهرة هلمينية قديمة^(٣٦) ، وغادرها
إفوروس إلى أثينا لأن التعليم بها كان أفضل ، ولكي يتتلمذ لايوكراتيس ويلقى
الخطوة لديه . ولانعرف تاريخ وفاته بالدقة ، ولكن الأرجح أنه مات في حياة
الإسكندر حوالي ٣٣٠ ق . م . وقد كتب تاريخاً عاماً ابتداء من عودة هرقليداى
والمستعمرات الدورية في الإيلوبونيز في نهاية القرن الحادى عشر (وقد اعتبر
ذلك أول حادث تاريخى هام) حتى ٣٤١ ق . م . وكتب ذلك التاريخ
في ثلاثين مجلداً ، أكمل ابنه ديموفيلوس الجزء الأخير منها . أما غرضه من وضع
الكتاب فيكشف عنه عنوانه وهو Historia coinon praxeon^(٣٧) الذى يمكن أن
نترجمه بتاريخ (أوبحث) الشؤون العامة للإنسان . وهو ما نسميه في العصر
الحديث « التاريخ المقارن » ؛ أى إن غايته كانت البحث في شؤون الإنسان
وأحواله في الأحوال الجغرافية والسياسية المختلفة . وقد وصلتنا شذرات من هذا
الكتاب يبلغ عددها ستاً وثمانين ، كما وردت إشارات إليه في مؤلفات المؤرخين
تاريخ العلم — ثالث

الذين أتوا من بعده . مثل بوليبيوس وديودورس ، وسترابون ، وبلوتارك . قال عنه بوليبيوس : « إنه كان أول من كتب تاريخاً عاماً ، وإنه انفرد بذلك دون غيره^(٢٨) » . ولكن هذا قول يجب ألا يؤخذ على ظاهره ، فإن ما كتبه إفوروس عن التاريخ العام كان محوره اليونان ، ولم يكن في إمكانه غير هذا . بل إن مؤلفي التاريخ العام في عصرنا هذا ، ممن تتوافر لديهم المصادر العديدة المتنوعة ، لا يستطيعون أن يتحرروا تمام التحرر من القيود التي تفرضها عليهم آراؤهم الوطنية . وقد حاول إفوروس أن يتجنب الأساطير في تاريخه ، وأن يعلل الحوادث تعليلاً علمياً ، كأن يرجع الأعمال التي قامت بها الشعوب إلى ضرورة البيئة الجغرافية .

ثيو ميمبوس الخيوسى Theopompos of Chios

أما « ثيو ميمبوس » فهو من المنطقة اليونانية التي منها إفوروس ، لأن من اليسير عبور البحر من جزيرة خيوس إلى خليج كيمي . ولد سنة ٣٨٠ ق.م. وبعد سنوات قلائل نفي أبوه داماسيسترآتوس من الجزيرة لأسباب سياسية . وهى في الأرجح تشييعه لأهل «لاكونيا» .

تلقى ثيو ميمبوس وهو طفل تعليمه في أثينا . وكان أحد تلامذة ايزوكراتيس وبعد حين أصبح خطيباً ممتازاً كأستاذه . وكان أول نجاح صادفه حصوله على جائزة الملكة أرتميسيا Artemisia . على المرتبة التي كتبها في زوجها وأخيها موسولوس Mausolos . والمعروف أن موسولوس مات سنة ٣٥٣ ق. م . فلا بد أن يكون ذلك قد حدث عقب موته مباشرة^(٢٩) . رحل ثيو ميمبوس كثيراً في بلاد اليونان يحاضر الناس ويعلمهم . ولقى الحظوة عند بعض الحكام مثل ملوك مقدونية . وقد رده الإسكندر الأكبر إلى خيوس ، ولكن بعد موت الإسكندر نفي ثيو ميمبوس مرة أخرى من جزيرته ، فلجأ إلى إفيسوس ثم إلى مصر حيث استقبله بطلميوس الأول (كان ملكاً من سنة ٣٩٣ - ٢٨٥) . والأرجح أنه مات بها .

ومن بين مؤلفاته الضخمة ما كتبه تنمة لتاريخ ثوكيديديس، من سنة ٤١٠ - ٣٩٨ ، والمجموعة الفيليبية the Philippica في ثمانية وخمسين مجلداً، وتاريخ اليونان من موقعة مانتينايا في سنة ٣٦٢ (حيث انتهى كسينوفون في كتابه عن اليونان Hellenica) حتى وفاة فيليب ٣٣٦ ق.م . وقد ضاعت مؤلفات ثيوپمپوس ولكن بقى منها شذرات تبلغ ٣٨٣ قطعة . معظمها مأخوذ من المجموعة الفيليبية ، كما نسب إليه نص طويل في نحو ثلاثين صفحة . عثر عليه في بردية أوكسيرينخوس Oxyrhynchos سنة ١٩١١ . ويتفق ثيوپمپوس مع إفوروس في بعض صفاتها . ولا عجب فقد كانا زميلين في مدرسة ايزوكراتيس . كما كانا ثمرة لجيل واحد ، وهو جيل تحررت فيه العقول من الأوهام . وقد أدرك كلاهما قيمة العوامل الجغرافية (في تفسير حوادث التاريخ) . كما أدركا ضرورة الاتجاه بالتاريخ وجهة إنسانية . وبعد انتصارات فيليب . وانتصارات الإسكندر بوجه خاص . أصبح من المستحيل بقاء الحكومات المحلية اليونانية . كما أصبح من المستحيل على قادة اليونان العقليين أن يقودوها دون أن يتطلعوا إلى ما وراء حدود بلادهم المختصرة .

وأهم ما تمتاز به كتابات ثيوپمپوس من صفات تخيلاته السيكولوجية ، فهو يرى أن الحوادث التاريخية يمكن تفسيرها بالعوامل الجغرافية والسياسية ، ولكن العوامل الرئيسة فيها هي أفكار العظماء من الرجال .

كان ثيوپمپوس عالماً واسع الثقافة ، كما كان ناقدًا بصيراً ، أو سياسياً قديراً ، وعالماً نفسياً ممتازاً . ولكنه كان مغروراً إلى أقصى حدود الغرور . وقد سبق (في ميدان التاريخ السيكولوجي) سالوستيوس^(٤٠) (في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد) ، بل تاكيتوس (في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد) ؛ ولم يستثن في نقده الملك الذي كان عظيم الإعجاب به ، إذ وصف سلوك الملك فيليب أشنع وصف . ولكننا لاندرى أكان الباعث على ذلك الضغينة والحقد أم توخى الحق . ولاندرى أكان السبب هو الجنوح للشر في التفكير ، أم نفاذ البصيرة ؟ ولكن لاجدال في أنه كان رجلاً مغروراً شديد

التهم . وقد اتهم بموالاته لحكومة إسبرطة كما اتهم أبوه من قبل ، وهذا ليس بعيد ، لأنه وجد مجال النقد في أثينا أوسع منه في إسبرطة وإن كانت إسبرطة لم تنج من لسانه . كان ساخرًا متأهبا دائما للتشهير بالشر أينما وجده . ولا نعتقد أن ذلك كان لجرأة فيه ، بقدر ما كان طبعاً ملازماً له ؛ وأغلب الظن أن قدرته على الخطابة ومواهبه الأدبية الأخرى كانت مما ضاعف من حقه وضعيفته . فكثيراً ما يتفوه أمثاله من الناس بالأقوال المقذعة ، لأن العبارات الخلابية والأخيلة القوية العنيفة تسهويهم . وقد كشف جلبرت مري عن كثير من أخلاق ثيوپمپوس وأشار إلى غروره بالعبارة اللبقة الآتية :

لقد اشتدت حملة النقد على سقطاته وأخطائه في هذه الناحية (ناحية غروره بنفسه) . غير أنه يجب ألا يغيب عنا أن الكاتب الحديث اليوم في غنى عن أن يمتدح نفسه ، وما عليه إلا أن يتفق مع ناشر كتابه على أن ينفق مبلغ كذا من المال في الدعاية له ؛ فإذا ضمن لنفسه أن ذلك البوق العظيم الغالى الثمن سوف يتحدث بلسانه ، كتب مقدمة كتابه . وأعلن فيها عن تواضعه ما شاء أن يعلن . أما ثيوپمپوس فلم يتوافر لديه هذه المزايا ^(٤١) .

وقد ذكرنا أن إفوروس حاول أن يتحاشى الأساطير (في تاريخه) . أما ثيوپمپوس فكان على العكس يحبها ، وهو لم ينظر إليها نظرة مفكر عادى ، بل نظرة فيلسوف ، كما فعل أفلاطون . لقد كادت الفضيلة تختفى ، وجانب الناس الحق ، فلعل الإنسان يجدهما في الأساطير ، والأساطير هي الأمور التي لا نتحدث أبداً ولكنها موجودة دائماً ^(٤٢) .

كان ثيوپمپوس ساخرًا كما قلنا ، ولكنه لم يكن ساخرًا بالمعنى الذى يفهم عادة من هذه الكلمة فحسب ، بل كان ساخرًا فنياً ، (وإلا فكل مفكر يسخر من عالمه المنحرف ومن أمتة المهارة) . ولم يمتدح من الفلاسفة أحداً سوى أنتستينس مؤسس المدرسة الكلية Cynic School وكانت السخرية طبعاً فيه . وإلى حد ما موجهة نحو الخير ، كانت إعلاناً عن ثورة نفس حرة تغالب ظروفاً قاسية :

نقد أشرف العالم على الدمار ، وأصبح كل شئ فيه زائفاً سوى النفس الإنسانية . وربما لم يبلغ ثيوپمبوس مبلغ انتستينس أو ديوجنيس الكلبي في السخرية والنظافة ولكنه وقف على دقائق تعاليم الكليبيين وأعجب بها .

ولما خضع اليونان لحكم مقدونية في الأيام المظلمة التي قضاها تحت يدها ، انقسم الناس في شعورهم إزاء هذا الحكم إلى طائفتين متطرفتين : طائفة الساخرين الشاكين وهؤلاء يمثلهم ثيوپمبوس ، وطائفة أصحاب الخرافات ، ومعظم هؤلاء — لا كنهم — من الجهلة غير المتعلمين . وليس من شك في أن السحرة والعرافين والمتعوذين والكهنة الذين أسند إليهم أمر المعابد والمغارات وعيون الماء المقدسة ، والكلمات المتلقاة من الآلهة ، كل أولئك درت عليهم أعمالهم ووظائفهم المال الوفير . وللناس في الصبر على الشقاء حد ، فإذا بلغ صبرهم أقصاه لجأوا إما إلى السخرية والتهكم وغير ذلك من ضروب الثورة النفسية . أو أذعنوا للقادر المحتوم ، فأذلو عقولهم وما فيهم من فطنة وانتبهوا حرمة العقل

مؤرخو العلم

النوعان السابقان من الشعور إزاء الحوادث هما النوعان المتقابلان ، ولكن يجب أن نفترض أن العقلاء من الناس لم يفقدوا صوابهم لما فقدوا غيرهم ، بل مضوا في أعمالهم في هدوء ، بقدر ما سمحت به ظروفهم . نعم لقد قاسوا كما قاسى غيرهم ، بل ربما كان ما قاسوه أشد وأعظم ، ولكنهم حاولوا أن يخفوا ذلك ونجحوا في محاولتهم . ولم يفعل ذلك عظماء الرجال من أمثال أرسطو وحدهم ، بل فعله من كانوا دونهم موهبة وقدرة على الابتكار والإبداع ، ولكن كانت لهم قدرة على الاحتمال وبعد النظر .

ومن بين هؤلاء الرجال المادنيين أود أن أضع في المقدمة مؤرخي العلوم الأوائل الذين يعدون بحق أسلافنا الروحانيين . وقد سبق أن ذكرنا ثلاثة منهم عاشوا جميعاً في زمن أرسطو : هم أوديموس من رودس ، وثيوفراستوس من إريسوس (المؤلف في تاريخ الحساب والهندسة والفلك) ، ومينون (الذي كتب في

تقلب الطب) وإن كان هذا دون الآخرين منزلة . كان مجهود هؤلاء العلماء فاتحة عهد جديد لسبيين : الأول أنه دل على أن العلم بلغ من السعة والتعقيد مبلغاً جعل من الضروري أن يكتب في تاريخه ، ويتأمل فيه تأملاً فلسفياً ، وذلك أن العلماء والأطباء في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد كانوا قد تجاوزوا مرحلة الملاحظة العلمية الأولية ، والتفسيرات العلمية الساذجة ، وأخذوا يتساءلون من أين أتينا ؟ أين كنا ؟ كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه ؟ بل تساءلوا إلى أين المصير ؟

هذه أمور قد نفهمها الآن أكثر مما كانت تفهم في عصر هادى مثل منتصف العصر الفكتورى مثلاً ، أما مسائل السياسة والاقتصاد ، فلا تزال نشعر فيها بخيبة الأمل التى شعر بها الأثينيون منذ ثلاثة وعشرين قرناً ، ولكننا فى الوقت نفسه أكثر منهم حيرة وانزعاجاً من أجل ما وصلنا إليه من تقدم عجيب فى ميادين العلم والصناعة .

أما السبب الثانى فهو أن مؤرخى العلوم هؤلاء كانوا مثلنا، يدافعون عن المعقول ضد غير المعقول ، وعن حرية الفكر ضد الخرافات والاستبعاد الروحى .

الخطابة :

لم يكن أرسطو أستاذاً فى العلوم والفلسفة وحدهما ، بل كان أيضاً أستاذاً فى الدراسات الإنسانية ، فقد ألف كتاباً أو كتابين فى الخطابة ، وكتاباً فى الشعر . ولكن من ذا الذى يريد اليوم أن يدرس الخطابة ، سوى بسطاء العقول ؟ بل لعل القارئ يسألنا : ما هى الخطابة ؟ لم يكن الناس بحاجة إلى أن يسألوا مثل هذا السؤال منذ خمسين سنة ، أما اليوم فقد كادت دراسة الخطابة تهمل إهمالاً تاماً فى كليتنا الجامعية (عدا كليات اللاهوت) ؛ وهى إذا درست ، فإنما تدرس بطريقة عرضية . وتعرف الخطابة بأنها « فن الكلام المؤثر المطابق لمقتضى الحال » .

وينقسم كتاب أرسطو في الخطابة إلى ثلاثة أقسام لانرى ضرورة لتحليلها هنا ، لأن الموضوع — من حيث هو جزء من الدراسات الإنسانية — معقد غاية التعقيد ولكننا نورد الملاحظات القليلة الآتية :

يبحث الجزء الأكبر من المقالة الأولى في تعريف الخطابة إجمالاً . كما يبحث في أنواعها ، فالرجل البليغ — أو الخطيب — يجب أن يحاول إيضاح فكرته ، ويحمل السامعين على الاعتقاد بصدق ما يقوله ، وبأنه خليق بأن يستمعوا إليه . والخطابة ثلاثة أنواع هي : الخطابة السياسية ، والخطابة القضائية forensic والخطابة التعليمية (الأكاديمية) . أما الخطباء السياسيون فيجب أن يتعلموا كيف يناظرون خصومهم في المسائل السياسية في المجتمعات العامة ، والخطباء القضائيون — كرجال القانون — يترافعون أمام المحاكم ، وأما الخطباء الأكاديميون فكالأساتذة ، يناقشون في شئون الحياة والأدب والفلسفة والفن ، مع طائفة من الزملاء أو التلامذة . وهكذا يتضح أن الأنواع الثلاثة للخطابة مختلفة متباينة ، وأن كلاً منها يحتاج إلى مصطلح فني خاص نجد له وصفاً عند أرسطو .

ولم تكن الحاجة (في زمن أرسطو) ماسة إلى الإفاضة في شرح الخطابة ومصطلحاتها ، فإن كل طالب في « الليكوم » بل كل أثيني مثقف ، كان ملماً بهذه المسائل من الناحية العملية ، ولم يحتاج إلى أكثر من أن توضح له النقط الأمهات الرئيسة . والحقيقة أن الأثينيين كانوا يعلمون منذ حداثة سنهم كل صورة من صور الخطابة تمييزاً ، ولذا كان إدخال أرسطو فن الخطابة في نظام تعليمه أمراً غريباً ، ولكن لعله فعل ذلك لأن الخطابة كانت فناً خطيراً مهما كان علم الأثينيين بها . وبعض الأشياء قد يبلغ علمنا به مبلغاً كبيراً ، ولكننا نعيد النظر فيه في ضوء جديد ومن وجهة نظر جديدة .

وتقتضى الخطابة وجود انفعالات وجدانية خاصة عند الخطيب وعند من يستمعين إليه ؛ فالخطابة صراع بين هذه الانفعالات ، ومهمة الخطيب أن يحاول أن يشكل بفنه عواطف الجمهور ويوجهها الوجهة التي يرى أنها أوفق وأصلح .

ولذا يحلل أرسطو في المقالة الثانية من كتابه كثيراً من العواطف كالارزانة والغضب والمحبة والعداوة والخوف والثقة والاستحياء والوقاحة والشفقة والقسوة والرحمة والغیظ والحسد والتنافس، ويشرح العواطف التي يمتاز بها كل دور من أدوار الحياة، وتلك التي تظهر مصاحبة لاستغلال المال والنفوذ، والتي تظهر نتيجة للحرمان منهما. ولذا يصح أن توصف هذه المقالة بأنها رسالة صغيرة في علم النفس العملي. وينبغي أن يكون الخطيب عالماً بأسرار النفس، ولا يكفي أن يكون على علم بنفسه، بل ينبغي أن يكون على علم بنفوس الناس وصفاتهم ومواطن الضعف فيهم، لأن من وظيفته إقناعهم وكسبهم إلى جانبه.

وقد كان لهذا الجزء من كتاب الخطابة لأرسطو أثر بالغ في تفكير رجال القرون الوسطى، تشهد بذلك وفرة المؤلفات التي شرحوا فيها الانفعالات والعواطف الإنسانية من حيث صلتها بالخطابة أو صلتها بالأخلاق والوعظ الديني.

ومن بين الاستطرادات الكثيرة التي تجدها في المقالة الثانية من هذا الكتاب موضع يخصصه أرسطو لكيفية استعمال الأقوال الماثورة (أو الأمثال). وهو يرى أن الأقوال الماثورة خلاصة لتجارب الأمم وحكمة السلف. ولذا ينبغي أن يعرف الخطيب كيف يستخدم هذه الأقوال وسيلة لدعم حجته، وإذا كان للسامعين علم سابق بها يسروا له أمر تفهيمهم ما يريد الإدلاء به إليهم.

أما المقالة الثالثة فاعل أرسطو كتبها مستقلة عن المقالتين الأخريين، ولكن نسبتها إليه صحيحة كنسبتهما. وهي تبحث بوجه خاص موضوع الأسلوب وناغته. ولكن كثيراً مما ورد فيها لا يعنى القارئ الحديث إلا إذا أراد التعمق في فهم اللغة اليونانية: كأن يعلم مثلاً أن الخطباء الأقدمين من اليونان كانوا أم من الرومان. اهتموا اهتماماً كبيراً بالخصائص الموسيقية للغة الخطابة كالنثر التوقيعي وأسلوب المثاني وما إلى ذلك.

والبحث في اللغة الجيدة الموفية بغرضها من التعبير عن مقتضى الحال، يتطلب النظر في مسائل ندخلها عادة في علمي النحو والصرف، ولكن الأجرومية

النظرية (على نحو ما توجد في الكتب المدرسية اليوم) لم يكن لها وجود في عصر أرسطو، وهو العصر الذي كتب فيه معظم روائع الأدب اليوناني، وهذه ظاهرة ليس من السهل تعليلها. نعم عرفت في ذلك العصر بعض قواعد الأجرومية التي نتعلمها اليوم على مضض في مدارسنا، ولكن أول كتاب وضع في الأجرومية اليونانية كتب في عصر متأخر، كتبه كراتيس من أهل مالوس في النصف الأول من القرن الثاني وهو مفقود. أما أقدم كتاب وصل إلينا عن الأجرومية اليونانية فهو كتاب ديونيسيوس تراكس (في النصف الثاني من القرن الثاني) ويعتبر الواضع الحقيقي لعلم الأجرومية وعلم النحو خاصة أبولونيوس ديسكولوس (في النصف الأول من القرن الثاني) وكانت له مكانة في الإسكندرية بعد ذلك بوقت طويل. ومن الصعب تحديد زمن أبولونيوس. ولكن إذا افترضنا أنه كان حياً في منتصف حكم هادريان (حوالي ١٢٧ بعد الميلاد) كان ذلك بعد وفاة أرسطو بأربعة قرون ونصف (٤٣).

ويشير أرسطو في كتاب الخطابة إلى المؤلفين الآتية أسماؤهم مرتبين تنازلياً حسب عدد إشاراتهم إليهم وهم: هوميروس، ويوريبيديس، وسوفوكليس، وأيزوكراتيس، وأفلاطون، وجورجياس، وسقراط وثيودكتيس (٤٤). وهو لا يذكر ديموستينيس إلا قليلاً. ولا يذكر ثيوكديدس إطلاقاً.

وليست مقالات كتاب الخطابة الثلاث منفصلة متميزة كما قد يفهم من العرض الموجز الذي قدمته، بل هي مرتبة حيثما اتفق. وبعض المسائل فيها تثار وتبحث غير مرة. فموضوع «الأقوال المأثورة» مثلاً يثار في المقالة الثالثة (بعد أن لُتَّاه في المقالة الثانية). وفي الإمكان أن نورد ملاحظات عدة على فقرات كثيرة من الكتاب. ولكننا سنقتصر ملاحظتنا على واحدة منها هي:

إن أسلوب الخطابة التي تلقى على الجماهير يشبه على الحقيقية رسم منظر من المناظر. فإذا كثرت عدد الجمهور بعد مرى النظر. وأصبحت العناية بصقل التفصيلات في كلتا الحالتين غير مطلوبة، بل أصبح من الأفضل تركها. أما أسلوب الخطابة

القضائية فينبغى أن يكون متقناً معقولاً . لاسيما إذا كان المتكلم يخاطب قاضياً واحداً ، حيث لا يتسع المجال للتزويق البلاغى ، لأن القاضى أقدر على فهم القضية المعروضة برمتها وعلى تقدير ما هو متصل بها وما هو خارج عنها ، وبذلك تقل حدة النزاع (بينه وبين المتكلم) ويصدر حكمه دون أن يقف فى سبيله عائق . هذا هو السر فى أن الخطيب لا يتفق له أن يبرز جميع أنواع الخطابة . وأقل ما تكون الحاجة إلى الصقل الكثير فى الموقف الذى فيه تكون الحاجة إلى الإلقاء التمثيلى جد ماسة ، وهنا ينبغى أن يكون صوت الخطيب جيداً قوياً . وخطب المناسبات Ceremonial أدخل الخطب فى باب الأدب . لأن المفروض أن يقرأها الناس . ويلبها فى ذلك الخطب القضائية (٥٠) .

لاحظ المقالة الأولى التى يقارن فيها أرسطو أسلوب الخطابة الملقاة على جمهور كبير برسم صورة من الصور ! لقد كتب أرسطو هذا الكلام سنة ٣٢٢ ق . م . ، ومع ذلك لم يدرك مغزاه كثير من خطباء الجماهير فى سنة ١٩٥٢ ، أى بعد أرسطو باثنين وعشرين قرناً ، فإن المتحدثين من الخطباء لا يزالون يفضلون رسم الصورة الصغيرة حيث يجب أن يرسموا الصورة الكبيرة البارزة على الحوائط ، وبهذا يملكون سامعيهم أشد الإملال . ولكن إملالهم السامعين قد لا يكون بالأمر الخطير إذا قيس بإخفاقهم فى تأدية المهمة التى يريدون أن يؤديوها . ليتهم لا يتكلمون ! لقد كان أرسطو خبيراً بما يقول !

أما كتاب الخطابة الثانى فهو أقصر من الأول (٥٤ عموداً فى طبعة بكر فى مقابل ٣٤) ، ويطلق عليه عادة اسم الخطابة إلى الإسكندر De rhetorica ad Alexandrum ، ويبدأ بالعبارة الآتية « من أرسطو إلى الإسكندر . . . تحية . . . » ثم يتلوها بإهداء للكتاب يقع فى أكثر من ثلاثة أعمدة ، ويشرح فيه المؤلف لماذا يجدر بالملك أن يكون على علم بالخطابة . وقد قال إراسموس إن هذا الإهداء مزور ، ولكن هذه دعوى غير مقنعة لأن للمقدمة طابعاً أرسطياً ، نعم ، قد تكون مملّة إلى حد ما ولكن يغلب عليها الوقار إذا قورنت

بمقدمات الكتب التي كتبها مؤلفو عصر النهضة ولم ينجلوا من أن يخاطبوا بها أولياءهم ، على ما فيها من معاني الذلة والخضوع والمداهنة . لقد طبعت هذه المقدمات بالفعل وكانت عاراً على المؤلفين ومن أهدوها إليهم على السواء .

على أن القول بالتزوير ليس مقصوداً على المقدمة وحدها ، فقد ذهب بعض الكتاب إلى أن الكتاب كله منحول . ويميل بعض الباحثين إلى نسبته إلى أنا كسيمينيس اللامبساكي (حوالى ٣٨٠ - ٣٣٠ ق . م .) . وكان معاصراً لأرسطو ، وكان مثله معلماً للإسكندر ؛ ولكن آخرين يجعلون تأليف الكتاب في عصر متأخر نسبياً . وقد أثبت البحث وجود أجزاء منه في ورقة البردى التي عثر عليها جرنفل وهنت^(٤٦) في هيبه Hibeh ونشراها سنة ١٩٠٦ . أما أن أرسطو هو الذى كتبه ، وأنه كتبه للإسكندر فنمض مقبول نظرياً ، ولكن لا سبيل إلى إثباته . وإذا لم يكن أرسطو مؤلفه فالأرجح أنه كتب عقب وفاته بوقت قصير — أى قبل نهاية القرن (الرابع) . وليس في هذا الكتاب كثير مما هو جديد إذا قورن بكتاب أرسطو المطول في الخطابة .

صناعة الشعر Poetics

كتاب الشعر الذى وصل إلينا كتاب صغير يقع في أقل من ثلاثين عموداً (في طبعة بكر) . وهو غير تام لم يصل إلينا منه سوى مقالة واحدة من مقالتين أو أكثر . ولاندرى أأرسطو لم يتمه أم أن الزمان قد أطح بأجزائه الباقية ؟ والأرجح أن الاحتمال الأول هو الصحيح . لأن شدة العناية بالمحافظة على مخطوطات مثل هذا الكتاب كانت وحدها كفيلاً بأن تحفظه . ولأن أرسطو كتبه — كما كتب الخطابة — في أخريات حياته . وآخر كتب المؤلف عادة أكثر من غيرها تعرضاً لأن تبقى ناقصة .

والشعر في نظر أرسطو شيء أهم بكثير مما نفهمه من هذه الكلمة في اصطلاحنا الحديث ؛ هو أدب الخيال إذا قولنا بالأدب العلى (أو الموضوعي)

يبدأ أرسطو الكتاب بالفقرة الآتية :

لما كان موضوع بحثنا هو الشعر فسأشرع في الكلام . لا عن الفن إجمالاً فحسب : بل عن أنواعه وعن الوظائف المختلفة لهذه الأنواع وعن بناء الحبكة المطلوبة لقصيدة جيدة . وعن عدد الأجزاء التي تتألف منها القصيدة ونوع هذه الأجزاء . وعن كل المسائل التي لها صلة بهذا الموضوع . ولنسلك الآن المنهج الطبيعي فنبدأ بالحقائق الأولية .

إن شعر الملحمة والمأساة والملهة وشعر الدثرايب Dithyramb* ومعظم الزمر بالمزمار والضرب على القيثارة . كل أولئك في جملته أساليب للمحاكاة . ولكن هذه الأساليب يختلف بعضها عن بعض من جهات ثلاث : إما باختلاف نوع وسائلها أو باختلاف موضوعاتها أو كيفية المحاكاة فيها (٤٧) .

(ويبحث النص الذى بين أيدينا في المأساة «التراجيديا» وحدها . أما القسم الذى يبحث في الملهة «الكوميديا» والموسيقى فقد ضاع أو لم يكتب أصلاً) . ويعرف أرسطو الشعر تعريفاً وافياً في الفصل التاسع حيث يقول : يتضح مما ذكرنا أن وظيفة الشاعر هي أن يصف شيئاً يمكن أن يحدث . لا شيئاً حدث بالفعل : أى أنه يصف الشيء المحتمل حدوثه من حيث هو كذلك . أو من حيث هو ضرورى . والفرق بين المؤرخ والشاعر ليس في أن الأول يكتب نثراً والآخر يكتب نظماً ، فإنك تستطيع أن تنظم تاريخ هيرودوت ، ويظل نظمك مع ذلك نوعاً من التاريخ : أما الفرق الحقيقي فهو أن التاريخ يصف الأمور التي حدثت ، والشعر يصف ما يحتمل حدوثه . ومن ثم كان الشعر أدنى إلى الفلسفة ، وأعظم خطراً من التاريخ ، لأن قضاياها ذات طابع كلي ، في حين أن قضايا التاريخ جزئية » (٤٨) .

ومقارنة أرسطو الشعر بالتاريخ لها دلالتها . ولكن الغريب في الأمر أنه

يكثّر من الإشارة إلى هيرودوت ، ولا يذكر ثوكيديديس أبداً ، مع أنه يتحدث في كتاب السياسة عن الحرب البيلوبونيسية . فكيف يمكن أن يجهل الأثينيون ثوكيديديس بل كيف يمكن ألا يعرفه أرسطو ؟ وإذا كان قد قرأ كتابه في التاريخ ، فلماذا أغفل الإشارة إليه إغفالا تاماً ؟ هذا أمر عجيب ! فإن أرسطو — وكان أقدر الناس على تقدير واقعية ثوكيديديس — قد أهمله هذا الإهمال الذي يشبه أن يكون عمداً . إن هذه الأمور محزنة حقاً ، ولكنها ليست غير عادية . وتاريخ العلوم حافل بأمثالها . وقد يحدث أن رجال العلم الذين يظهر أن بعضهم إلى بعض أقرب لابتلاقون ، بل قد تتقارب طرقهم إلى الحد الذي يؤذن بالتلاق ، ثم لا يتحقق تلاق . والجزء المعروف عند أكثر الناس من كتاب الشعر هو الجزء الذي يشبه فيه أرسطو المأساة « التراجيديا » بالتطهير (catharsis) وهذا وارد في تعريفه للمأساة حيث يقول :

المأساة إذن هي محاكاة عمل جدى ؛ ومن حيث إن لها حجماً فهي شئ تام في ذاته . وهي تصاغ في لغة مصحوبة بتتابع تبعث السرور ، يستعمل كل نوع منها في خلال المأساة منفرداً . وتوضع (المأساة) في صورة درامية لا قصصية ، وفيها أحداث تثير الإشفاق والخوف ، وعن طريقهما تحدث المأساة تأثيرها الخاص الذي هو تطهير النفس من مثل هذين الوجدانين . وأعني بقولي « لغة مصحوبة بتتابع تبعث السرور » لغة مضافاً إليها الإيقاع والتوافق أو الغناء . وأعني بقولي « يستعمل كل نوع منها منفرداً » أن بعضها يؤدي شعراً مجرداً وبعضها الآخر يؤدي غناء^(٤٩) .

ويشير التعريف أيضاً إلى ما يصح أن نسميه « وحدة الفعل » ، لأنه ينص على أن المأساة يجب أن تكون تامة في ذاتها . ثم يذكر أرسطو هذا المعنى بعد قليل في عبارة أكثر تحديداً حيث يتحدث عن « وحدة القصة »^(٥٠) . وهو يشير إلى « وحدة الزمن » إشارة عابرة^(٥١) ، أما « وحدة المكان » . فلا يذكرها إطلاقاً .

ويلاحظ أن « نظرية الوحدات الثلاث » التي أخذ بها كتاب العصر الكلاسيكي في فرنسا (كورني وراسين وبوايو) واعتبروها أصلاً من أصول الأدب ، ليست نظرية قديمة بل محدثة لأنها لم تظهر في صورة واضحة حتى سنة ١٦٣٦ (Le Cid) (٥٢).

ومن السهل أن يعترض معترض بأن كتاب الشعر لأرسطو لا يعالج الشعر من حيث هو فن ملهم ، وأنه لا شاعر يرغب في قراءته ، بل لو قرأه لما وجد فيه شيئاً من الإلهام . ونحن نجيب بأن كتاب الشعر لم يكتب للشعراء ، إنما كتب للنقاد والفلاسفة . ولم يكتب للعرافين والمتنبئين . وإنما كتب للعلماء . ولنا أن ننقده ، ولكن ليس لنا أن ننقده على أساس باطل .

خاتمة :

قد يرى بعض القراء أنه كان الأولى بنا ألا نتحدث عن كتابي الشعر والخطابة إلا في أضيق الحدود ، لأنهما لا يدخلان في ميدان بحثنا الذي هو تاريخ العلم ، ولكن الذي حملنا على الكلام عنهما — بل اضطرنا إلى ذلك — هو رغبتنا في أن نوضح النظرة الشاملة في التفكير الأرسطي . فنحن إنما نتحدث في كتابنا هذا عن العلم القديم لا الحديث ، فيجب أن ندرس العلم الأرسطي في ضوء تصوره هو لا تصورنا . وقد كانت غايته تحايل المعرفة الإنسانية برمتها ووضعها في صيغ علمية . والخطابة والشعر في نظره أقرب شيء إلى العلوم . وإن لم يعد هما من أصناف العلوم . لهذا كان لزاماً على رجل العلم أن يلم بهما . وإذا كان كذلك ، فالواجب أن يكون تحصيله لهما تحصيلاً علمياً .

ويحذر برجل العلم أن يكون ملماً بالدراسات الإنسانية . وقد فعل أرسطو نقبض ما فعله أفلاطون ، فإن أفلاطون حول العلم والفلسفة والاجتماع إلى تصورات ميتافيزيقية خيالية . وأخرج الشعراء والفنانيين من مدينته (الفاضلة) . أما أرسطو

فقد حاول أن يدخل في فلسفته المعرفة الإنسانية كلها ، بل الحياة برمتها ، واعتبر بوجود الفن ، ولكنه حاول أن يفسره ويمزج العلم به ، فكان بهذا سابقاً على مؤرخي الفن ومؤرخي الشعر في عصرنا الحاضر . وكثيراً ما يعارض رجال الفن والشعر في تحليل إنتاجهم تحليلاً علمياً ، ولكنهم مخطئون مادام هذا التحليل لا يحمل ادعاء ، ولا يتعرض لتنظيم الإنتاج الفني . بل يسلم بهذا الإنتاج تسليماً كما نسلم بوجود المخلوقات الطبيعية .

من هنا ندرك لماذا يمكن أن يصبح أرسطو - وقد أصبح بالفعل - عدواً لدوداً لأولئك الذين يكرهون العلم ولا يثقون به ، وعدواً للناشئين من الشعراء والفنانين . ولماذا أصبح من ناحية أخرى معبود رجال العلم وكل محب للحقيقة الواقعية .

هوامش الفصل الثاني والعشرون

(١) يلاحظ أن المعنيين الأصليين للكلمة Ecology (علم أثر البيئة) و Economy (علم الاقتصاد) مترادفان تقريباً ، فمن العبث أن نتشبه برسم الأولى oecology ولا نرسم الثانية oeconomy . ونحن نستعمل الكلمتين "nomos" (القانون) و "Logos" (الكلمة أو العلم) غالباً على سبيل الترادف في اصطلاحاتنا ، فنسمي علم طبقات الأرض geology وعلم الفلك astronomy بينما نستعمل كلمة astorology (علم أحكام النجوم) للدلالة على مجموعة من الحرافات (متصلة بحركات الأفلاك) . وهكذا نجد في كل لغة من اللغات ما هو معقول وما هو غير معقول .

(٢) كتاب تاريخ الحيوان Historia animalium لأرسطو ٥٤٧ ب - ١٥٤٨ .

(٣) تكتب الكلمة في اللغة اليونانية القديمة Pina أو Piné بحرف واحد ولكنها نكتبها Pinna جريباً على استعمالها في اللغة الإنجليزية . أما كلمتا Pinophylax Pinoterer فاتبعنا في رسمهما أفضل الطرق في اللغة اليونانية . راجع عن الأدب الشعبي المتصل بالبلبا مجلة إيزيس : ٣٣ و ٥٦٩ (سنة ١٩٤١ - ٤٢) .

(٤) يشير إلى اليربوع jerboa أو Dipus aegyptiacus

(٥) كتاب تاريخ الحيوان لأرسطو ٥٨٠ ب ١٠ .

(٦) Charles Elton, Voles, mice and lemmings. problems in population dynamics

(Oxford : Clarendon Press, 1942) P.3 (Isis 35, 82(1944).

(٧) المرجع السابق ص ١٥٨ .

(٨) أما محاورات أفلاطون فنوع آخر من أنواع الكتب .

(٩) ١٠٩٤ - ١٢٥١ ب من مؤلفات أرسطو .

(١٠) هناك وجوه شبه كثيرة بين « الأخلاق النيقوماخية » و « الأخلاق الأوديمية » ؛ فالفصول الرابع والخامس والسادس من الثانية تشبه الفصول الخامس والسادس والسابع من الأولى . وقد قيل إن هذه الفصول الثلاثة كانت في أول الأمر أجزاء من « الأخلاق الأوديمية » ثم أدخلت ضمن الأخلاق النيقوماخية . نعم من المحتمل أن يكون مؤلف الكتابين شخصاً واحداً ، ولكن إذا فرضنا أن هذا الشخص هو أرسطو ، ألا يحق لنا أن نتساءل لماذا أعاد كتابة كتاب سبق أن ألفه ، وقد كان على ما كان عليه من كثرة المهام ؟ أما « الأخلاق الكبرى » فهي من غير شك لمؤلف آخر كما يدل على ذلك اختلافها في الأسلوب والمصطلحات ، فإن فيها ما لا يقل عن أربعين كلمة غير واردة في الكتابين الآخرين .

(١١) تقع الأخلاق النيقوماخية في ١٧٦ عموداً في طبعة بكر بينما تقع الثلاثة الكتب الأخرى في ١٤٤ عموداً . (٧٢ ، ٦٦ ، ٦) .

(١٢) الحق أن من الخطأ إطلاق هذا التعبير على أرسطو الذي وضع مركز التفكير في القلب لا في المخ . ولكنني استعملت هذا الاصطلاح لمجرد الإيضاح .

- (١٣) ص ١٢٠٦ ب ١٩ .
 (١٤) ص ١١٨٥ ب .
 (١٥) ص ١٣٤٣ - ١٣٥٣ .
 (١٦) يلاحظ أن نشرة بكر وترجمة أكسفورد لاتحويان إلا البابين الأولين (١٣٤٣ - ١٣٥٣) انظر المقالة الثالثة في :

Franz Susemihl, *Aristotelis quae feruntur Oeconomica* (Leipzig, 1877).

- (١٧) كتاب السياسة ١٢٩٠ ب - ١٢٩١ ب ١٣ .
 (١٨) عثر على النص اليوناني لنظام الأثينيين سنة ١٨٩١ - كما أشرنا إلى ذلك من قبل -
 عثر عليه فردريك كينون Frederic G. Kenyon وترجمة إلى اللغة الإنجليزية في المجلد العاشر من مجموعة مؤلفات أرسطو المطبوعة في أكسفورد (١٩٢٠) . انظر كذلك نشرة سيرجون إدوين سانديز Sandys الطبعة الأولى في لندن سنة ١٨٩٣ والثانية سنة ١٩١٢ . وكل انشراوات والترجمات هذا النص تنقسم إلى فصول من ١ - ٦٩ كما هو الحال في ترجمة كينون ، وهي لا تشير إلى الصفحات على نحو ما يفعل بكر لأن هذا الكتاب لم يدخل في نشرة بكر لأرسطو .
 (١٩) كان أول من نادى بالمساواة في الملكية بين أفراد المدينة الواحدة . انظر كتاب السياسة ١٢٦٦ ٤٠١ - ١٢٧٤ ب ٩ .
 (٢٠) المرجع السابق ١٢٥٣ ٢١ .
 (٢١) من الطريف أن نقارن بين ما يقوله أرسطو عن هذه الروابط الأساسية ، بل ما يقوله بوجه عام في نظرياته السياسية والاجتماعية ، فالأفكار الصينية على نحو ما قررها كونفوشيوس (القرن السادس قبل الميلاد) وموقو Mo Ti (القرن الخامس قبل الميلاد) ومنسيوس Mencius (القرن الرابع قبل الميلاد) ولكن هذا قد يعد بنا كثيراً عن غرضنا . وقد عاش منسيوس ما بين سنتي ٣٧٢ و ٢٨٩ وكان معاصراً لأرسطو وأصغر منه سناً .
 (٢٢) رقت المقالات ترقياً مختلفاً في المخطوطات والنشرات المختلفة . فالمقالات ٤ - ٨ رقت أيضاً بالأرقام الآتية ٦ و ٨ و ٧ و ٤ و ٥ .
 (٢٣) ١٣٠١ - ١٣١٦ .
 (٢٤) السياسة ١٢٥٥ أ : ١ .
 (٢٥) نفس المرجع ١٢٥٥ ٣١١ . لا يستطيع الإنسان أن يزعم أن الأرقاء يختلفون اختلافاً جوهرياً عن غيرهم من الناس بدليل أن كثيراً من الأرقاء قد برهنوا في حياتهم على امتيازهم في أخلاقهم وكرم نفوسهم وهذه ثغرة (في تفكير أرسطو) كثيراً من الثغرات . وللإنسان أن يقول إن هؤلاء الممتازين من الأرقاء ليسوا أرقاء على الحقيقة أو بطبيعتهم وإنما هم أحرار صاروا أرقاء بطريقة عرضية . وقد سلم أرسطو بأن الرقيق الذي له نفسية الحر يجب أن يطلق سراحه .
 (٢٦) المرجع بعينه ١٢٥٦ ب ٢٠ انظر كذلك ١٢٥٥ ب ٣٩ و ١٣٣٣ ب ٣٨ .
 (٢٧) المرجع ذاته ١٢٥٨ ب ٨ .
 (٢٨) كان ديونيسيوس هذا طاغية سيراكوز وهو إما ديونيسيوس الأكبر - الأب (٤٣٠ - ٣٦٧) ، أو الأصغر - الابن - الذي خلف والده سنة ٣٦٧ ومات سنة ٣٤٣ في ظروف غامضة . وقد قرب كل منهما أفلاطون إليه .

(٢٩) كتاب السياسة ١٢٥٩ ٢٣١ .

(٣٠) المرجع ذاته ١٢٥٨ ب ٢٥ .

(٣١) راجع عن تاريخ الربا Encyclopaedia of Religion and Ethics

المجلد ١٢ (سنة ١٩٢٢) ص ٥٤٨ - ٥٥٨ وكذلك كتاب نلسون في معنى الربا إلخ :

N. Nelson, The idea of usury. From tribal to universal brotherhood,

مطبعة جامعة برنستون سنة ١٩٤٩ [إيزيس ٤١ و ٤٠٦ (١٩٥٠)] .

(٣٢) السياسة ١٢٦٣ .

(٣٣) فقد قال إن الدولة وجدت لصالح الفرد ، لا الفرد لصالح الدولة . وكان هذا أحد المبادئ الأولى لحقوق الإنسان . انظر المقدمة ج ٢ ص ٩١٥ .

Tois tas coinas historias pragmateusa menoio (٣٤)

انظر ترجمة أولفاذر Oldfather في مجموعة مكتبة لويب الكلاسيكية سنة ١٩٣٣ .

(٣٥) انظر كتاب « إفوروس المؤرخ » تأليف جودفري لويش باربر . كبردج سنة ١٩٣٥ [إيزيس ٢٦ ، ١٥٧ - ١٥٨ (١٩٣٦)] .

(٣٦) هاجروا له هيزود من كيمي إلى بيوتيا Boeotia . وتواجه كيمي البحر مابين ليسبوس وخيوس واسمها التركي الحديث سندا كلى .

(٣٧) قارن ذلك بفاتحة كتاب ديودورس التي اقتبسناها ، في الهامش ٣٤ .

(٣٨) التواريخ لهوليبيوس ٥ : ٣٣ .

(٣٩) سبق ذكر موسولوس . وكان ملكاً على كاريا من سنة ٣٧٧ - ٣٥٣ ق . م . وهي السنة التي مات فيها ، وكاد يحصل على الاستقلال التام عن الحكم الفارسي . وكان قصره وقبره المعروف بالموسوليوم في هاليكارناسوس .

(٤٠) يذكرنا سالوستيوس بشوكيديس . ولكننا نغضط توكيديس حقه إذا اعتبرنا ثيويمبيوس واضع علم التاريخ السيكلوجي كما ذكرنا من قبل (انظر المقدمة : ١٤٧) لأن توكيديس أحق بهذا الوصف .

(٤١) ثلاث محاضرات ألقيت في كبردج سنة ١٩٢٨ في :

Paracharaxis or the restamping of conventional coins

وقد أعيد طبعها في كتاب Greek Studies في أكسفورد سنة ١٩٤٦ ص ١٤٩ - ١٧٠ [إيزيس ٣٨ و ٣ - ١١ (١٩٤٧ - ٤٨)] .

(٤٢) هكذا يعبر سالوستيوس في كتابه عن الآلهة والعالم حيث يقول :

Tauta de egeneto men udepote esti de aei.

وقد كان سالوستيوس هذا على علم بمذهب الأفلاطونية الحديثة في الصورة التي وضعها بميلخوس ، ولعله كان صديقاً لجولييان المرتد ، بل لعله كتب كتابه بعد وفاة جولييان بوقت قريب (وقد توفي جولييان سنة ٣٦٣) ونشره نشرة خاصة . انظر ترجمته ونشرته الحديثة لأرثر داربي نوك Nock : كبردج سنة ١٩٢٦ ص ٨ .

(٤٣) قد يعترض بأن بعض قواعد الأجرومية قد عرف قبل أرسطو ، وأن بروتاجوراس (القرن

الخامس قبل الميلاد) قد وصف بأنه أول عالم نحوى . ولكن كانت الفترة طويلة جداً بين الوقت الذى فيه بدأ الشعور يتجه نحو الأجرومية ، والوقت الذى صيغت فيه أول صياغة علمية بسيطة ، فإن المدة بين بروتاجوراس وكراتيس زهاء قرنين ونصف قرن .

(٤٤) كل هذه الأسماء معروفة عند القارىء عدا هذا الأخير . وأصل ثيود كتيش (ح ٣٧٥ - ٣٣٤) من فاسيليس (لكيا) ، عاش فى أثينا وتلمذ لأفلاطون وإيزوكراتيس وأرسطو ، واشتهر بالخطابة والكتابة . وكان له نصب تذكارى فى فاسيليس زاره الإسكندر الأكبر تعظيماً لصاحبه .

(٤٥) كتاب الخطابة ١٤١٤ ترجمة رص Ross المطبوعة بأكسفورد .

(٤٦) الأول برنارد بين جرنفل B. Pyne Grenfell (١٨٦٩ - ١٩٢٦) والثانى آرثر سرج هنت A. Surridge Hunt (١٨٧١ - ١٩٣٤) وكلاهما من علماء البردى المعروفين .

(٤٧) هذه الفقرة وغيرها من فقرات كتاب الشعر مأخوذة من كتاب أنجرام بايوتر Ingram Bywater, Aristotle on the art of poetry, Greek and English Oxford, 1909

(٤٨) الشعر لأرسطو ١٤٥١ آخر ١ .

(٤٩) الشعر ١٤٤٩ ب .

(٥٠) الشعر ١٤٥١ ١٦ .

(٥١) تحاول المأساة بقدر المستطاع أن تكون فى دائرة شمسية واحدة أوفى شئ قريب من هذا .

الشعر ١٤٤٩ ب ١٣

(٥٢) ظلت قاعدة الوحدات الثلاث معتبرة المثل الأعلى فى الدراما فى فرنسا إلى أن تحداهها فيكتور هوجر تحدياً عنيفاً فى مقدمة كتابه عن كرمويل (باريس . ديسمبر ١٨٢٧) وكان ذلك إيذاناً بظهور المدرسة الرومانتيكية .